المحاضرة الثالثة : إبن خلدون وقضايا الدولة والإجتماع البشري

أهداف التعليم :

* التعرف على الفكر الخلدوني

* التعرف على مضامين العلم لجديد (العمران البشري)

* التعرف على كيفية نشوء الدول وأسباب سقوطها

الدولة عند إبن خلدون هي الإمتداد الزماني والمكاني لحكم عصبية ما .ويمكن أن نلخص آراءه في هذا المجال إلى قسمين : قسم يخص إمتداد الدولة في المكان ومدى وإتساع رقعتها، وقسم يخص إستمرارها في الزمان ، وهو مجمل المراحل التي يمر بها حكم العصبية الحاكمة إبتداءا من تاريخ إستلامها السلطة إلى نهاية عهدتها.

وهكذا إذا نظر إبن خلدون إلى الدولة من حيث " إمتداد حكم العصبية الغالبة في المكان ، ولنقل من الناحية الأفقية ، وجدها نوعين : دولة خاصة ، ويقصد بها حكم عصبية خاصة في إقليم معين ، تابع ولو نظريا لحكم عصبية عامة تمتد سلطتها إلى أقاليم عديدة فتشكل هكذا الدولة العامة . فالدولة البويهية مثلا هي دولة خاصة بالنسبة إلى الدولة العباسية التي كانت تشملها وتشمل غيرها من الإمارات". بهذا المعنى تكون الدولة العامة هي الدولة التي لا تخضع لغيرها من الدول بأي شكل من الأشكال ، فيمتد نفوذها إلى جميع المناطق التي تقع تحت سيطرتها. هذا من جهة ومن جهة أخرى قد تمتد سلطتها أيضا إلى بعض المقاطعات التي تكونت فيها دول خاصة أو ما يسمى إمارات (سلطة إسمية فقط). وهذا يعني ما يعنيه أن سلطة الدولة الخاصة هي ملك ناقص ،في حين أن سلطة الدولة العامة هي ملك تام .

أما الدولة من الناحية العمودية ، أي من حيث " إستمرار حكم العصبية الغالبة ، في الزمان فإن إبن خلدون يقسمها إلى قسمين:" دولة شخصية ، وهي حكم شخص واحد من أهل العصبية صاحبة الملك والرئاسة ، مثل دولة معاوية ، أو دولة يزيد أو دولة المأمون ..إلخ وهي بطبيعة الحال محدودة زمنيا بمدة حكم هذا الشخص.والصنف الثاني هو الدولة الكلية، وهي مجموع الدول الشخصية التي ينتمي أصحابها إلى عصبية واحدة ، خاصة كانت أو عامة ".

لقد إعتبرإبن خلدون الدولة كائنا حيا يولد وينمو، ثم يهرم ليفنى، فللدولة عمر مثلها مثل الكائن الحي تماما، وقد حدد إبن خلدون عمر الدولة بمائة وعشرين عاما، لأنه يرى أن العمر الطبيعي للأشخاص كما زعم الأطباء والمنجمون مائة وعشرين عاما، ولا تعدو الدول في الغالب هذا العمر إلا إن عرض لها عارض آخر من فقدان المطالب، ، وذكر أنها تتكون من ثلاثة أجيال كل جيل عمره أربعون سنة، وذلك لأنه إعتبر متوسط عمر الشخص أربعين سنة، حيث يبلغ النضج إلى غايته .

وقد أعطى إبن خلدون أمثلة لأعمار الدولة على بعض الدول مثل: المرابطين، والموحدين، والمرينيين في المغرب، وملوك الطوائف في الأندلس، والحمدانيين في حلب .

ويرى إبن خلدون أن الدولة تتأسس وتتطور على أساسين:

1-الشوكةوالعصبيةالمعبرعنهمابالجند.
2- المال الذي هو قوام أولئك الجند، وإقامة ما يحتاج إليه الملك من الأحوال.

- أطوار الدولة :

يرى إبن خلدون أن للدولة أعمارا طبيعية مثل الأشخاص الطبيعيين وهي تمر بمراحل عمرية طويلة تبدأ من الطفولة إلى الشيخوخة وتستغرق في ذلك مدة تتراوح من 80 سنة إلى 120 سنة .وعند إبن خلدون فإن أساس الدولة العصبية ن فإن كانت قوية دامت الدولة وإتسعت رقعتها وإن كانت ضعيفة كان مصيرها الإنحدار والزوال .

إن آثار الدولة إنما تحدث "عن القوة التي كانت بها أولا ، وعلى قدرها يكون الأثر . فمن ذلك مباني الدول وهياكلها العظيمة ، فإنما تكون على نسبة قوة الدولة في أصلها لأنها لا تتم إلا بكثرة الفعلة في إجتماع الأيدي على العمل والتعاون فيه : فإذا كانت الدولة عظيمة فسيحة الجوانب كثيرة الممالك والرعايا ن كان الفعلة كثيرين جدا وحشروا من آفاق الدولة وأقطارها ، فتم العمل على أعظم هياكله ".

أما إذا وصلت العصبية إلى أدنى مراحل ضعفها تفقد الدولة قوتها السياسية ويلامس الخلل العمران ويتراجع البنيان والتشييد .

تمر الدولة في تطورها بأطوار مختلفة وحالات متعددة لا تتجاوز أطوارا خمسة . ويقرن إبن خلدون أطوار الدولة الخمسة بثلاثة أجيال فقط، فالجيل الأول هو من يقوم بعملية البناء

والمحافظة عليه ، والجيل الثاني يسير على خطا الجيل الأول من التقليد وعدم الخروج على القاعدة ، أما الجيل الأخير فهو الجيل الهادم ، "فالدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص"، على حد تعبيره.

الطور الأول : طور السعي إلى الملك والظفر به بالغلبة

وهو طور إنشاء الدولة عن طريق القوة والتغلب القائم على العصبية الأسرية والدينية . وفي طور التأسيس يكون السلطان يفتقد لبديهيات الحكم ولذا نراه لا يستغني على العصبية .ويعبر إبن خلدون عن هذا الطور بقوله أنه " طور الظفر بالبغية وغلب المدافع والممانع ، والإستيلاء على الملك وإنتزاعه من أيدي الدولة السالفة قبلها . فيكون صاحب الدولة في هذا الطور أسوة قومه في إكتساب المجد وجباية المال والمدافعة عن الحوزة والحماية ، لا ينفرد دونهم بشيئ لأن ذلك هو مقتضى العصبية التي وقع بها الغلب وهي لم تزل بعد بحالها" .يسود في هذا الطور ما يسمى بالديمقراطية القبيلة ، وإستمالة القلوب وكسب العصبيات المغلوبة من دفعها إلى مناصرة الحاكم.

الطور الثاني : طور الإستبداد على قومه والإنفراد بالملك ومدافعة المنافسين

وفيه ينفرد السلطان بالحكم ، فيعمل على قمع العصبية وإستبعاد أهل عصبيته من ممارسة الحكم.ويوصل الأمر إلى درجة قتل وإهلاك من استراب به من قرابته المرشحين لمنصبه .إن نزعة " الحاكم الإستبدادية هنا ، ورغبته في الإنفراد بالملك والمجد تؤدي به إلى إصطناع جيش محترف من الموالي والأجانب ، يأخذ في الإعتماد عليهم تدريجيا ويستغني بهم عن عصبيته ويؤدي هذا في النهاية إلى إنهيار التماسك القبلي".

الطور الثالث :طور الفراغ والدعة لتحصيل ثمرات الملك

فالدولة في هذا الطور تبلغ قمة قوتها، ويتفرغ السلطان لشئون الجباية، وإحصاء النفقات والقصد فيها .وفي هذا الطور يعيش الجميع حياة الرفاهية ."وُسعه في الجباية وضبط الدخل والخرج، وإحصاء النفقات والقصد فيها، وتشييد المباني الحافلة والمصانع العظيمة والأمصار المتسعة والهياكل المرتفعة، وإجازة الوفود من أشراف الأمم ووجوه القبائل، وبث المعروف في أهله، هذا مع التوسعة على صنائعه وحاشيته في أحوالهم بالمال والجاه، واعتراض جنوده وإدرار أرزاقهم وإنصافهم في أعطياتهم لكل هلال، حتى يظهر أثر ذلك عليهم في ملابسهم

وشكبهم وشاراتهم يوم الزينة، فيباهي بهم الدول المسالمة، ويرهب الدول المحاربة". ويمكن القول أن هذا الطور هو آخر أطوار الإستبداد وتضعف فيه مهمات العصبية .

الطور الرابع : طور القنوع والمسالمة

والدولة في هذا الطور تكون في حالة تجمد فلا شيء جديد يحصل، ولا تغير يحدث، كأن الدولة تنتظر بداية النهاية يكون صاحب الدولة في هذا الطور متلفًا لما جمع أوَّلوه في سبيل الشهوات والملاذ والكرم على بطانته وفي مجالسه. ويلخص إبن خلدون هذا الطور بقوله " يكون صاحب الدولة في هذا قانعا بما بنى أولوه ، سلما لأنظاره من الملوك ، وأقتاله ، مقلدا للماضين من سلفه ، فيتبع آثارهم حذو النعل بالنعل ، ويقتفي طرقهم بأحسن مناهج الإقتداء ، ويرى أن في الخروج عن تقليدهم فساد أمره وأنهم أبصر مما بنو من مجده ".

الطور الخامس : طور الإسراف والتبذير

ويكون السلطان في هذا الطور مدمرا لكل ما بناه أسلافه وذلك في سبيل الشهوات ، وفي هذا الطور تحصل في الدولة إشارات الهرم، وتستولي عليها الأمراض المزمنة التي لا دواء لها إلى أن تنقرض وفي هذا يقول إبن خلدون " ينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن، ويفقدون حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر، ويبلغ فيهم الترف غايته بما تبنقوه (تقلبوا فيه) من النعيم وغضارة العيش، فيصيرون عالة على الدولة، ويفقدون العصبية بالجملة، وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة".

إذا كانت الدولة تتبع أطوار خمسة كما يقول إبن خلدون، فإنها لا تتجاوز ثلاثة أجيال، جيل البداوة وجيل الحضارة، وجيل الترف الذي تسقط فيه الدولة.

من أهم صفات جيل البداوة خشونة العيش والتماسك الاجتماعي ، فلا تزال بذلك صورة العصبية محفوظة فيهم، والبدو من صفاتهم الإقتصار على الضروريات من العيش في ظروفهم و أحوالهم، لكنهم سيتطورون، إذ يرتقي حالهم من البداوة إلى الحضارة والعمران بفعل المُلك مع الجيل الثاني.. والحضارة إنما هي إسراف في الترف وأحكام الصنائع المستعملة، وتشييد القصور والإستمتاع بملذات الدنيا، وإختيار الراحة على المجهودات، فيتحول الهدف نحو الترف الذي هو غاية الحضارة، وهو يزيد الدولة في بدايتها قوة، إلا أنه السبب الرئيسي للوصول إلى مرحلة الإنحلال، وهو المؤذن بنهاية العمران.